

جناية الرواة على الشعر

Les rhapsodes criminels .

بقلم الاديب النافذ البصير الاستاذ عبد القادر عاشور من كبار اساتذة الاسكندرية بمصر
اذا كان الشعر عند الغربيين مظهرا من مظاهر الصراع بين الحق والباطل
فانه عند العرب اعم وأوسع ، ألا ان الذكر الحكيم كفى شعراء العربية مؤونة
التعرض لكثير من الاغراض كاخبار الاولين والحث على اتباع ما كمل من العادة
والاخلاق ، وكأن الشعراء عند ما يهرتهم بلاغة القرآن سقطوا في ايديهم ونسوا
الحرية والصرامة اللتين هما أساس نمو الشاعرية وتلبب الوجدان ، وأجل منهم
من أجل ، حتى ان ليلى بن ربيعة هجر الشعر ولم يرو له في الاسلام غير بيت
واحد ، وهو - على بعض الروايات :

ما عاتب الحر الكريم كنفه
والمرء يصلح المجلس الصالح

وكان اذا سئل عما قال من الشعر بعد الاسلام يتلو بعض آيات من القرآن
وأيقن كثير من الشعراء بعد ذلك أنهم لن يتمكنوا من الظهور كشعراء إلا بعد
أن يتخفوا لهم اماما من شعر السابقين يحتجون به اذا اعترضهم معترض ومن
شد منهم عن هذه القاعدة وركب متن الحرية ملهم من التقليد وقصر العاطفة وجاء
شعرا كله ابداعا في ابداع كلب ربيعة وابن اذينة والعرجي .

وفي هذه عصر بني أمية ظهر الرواة الذين أفسدوا الشعر وانتحلوا وأجبروا
الشعراء على ارتكاب ما سود صحيفته ونزل به الى الحضيض وأملوا عليهم رغباتهم
واضطروهم الى الشطط في الصناعة والتكلف واصطياد الغريب والحوشي
ومكانتهم السامية لدى الملوك والأمراء وكلمتهم النافذة في الحكم على الشعراء
أضحت بلب كثير من محترفي الشعر فأصبحوا ولا هم لهم غير ارضاء الرواة
والتزلف اليهم او معارضتهم والظهور عليهم كما كان يفعل الطرماح بن حكيم
فانه كان يسأل الأعراب عن الغريب ويضمه في شعرا ليشعري به علماء الشعر
وتقدمته وبهذا سميت منزلته عندهم حتى أن أبا عبيدة والأصمعي فضلا عن غيره
من الشعراء وزعموا انه أشعر الخلق في عصره .

بجسّاب حلة برجد لسراته قدوا واخلف ما سوا البرجد
 يبدو وتضمرة البلاد كأنه سيف على شرف يسيل ويغد
 وكلنا يعلم أن في هذا الاستحسان من الخطأ ما فيه ! غير أننا بازاء هذا
 الاختيار نلجأ الشعراء ونضع اليوم كله على عاتق ما نصبوا أنفسهم للتقدير والحكم
 وكيف لا نلوم الاصحى على استحسنه الاستحسان كله قصيدة المرقش :
 هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حياء ناطقا كلم
 مع انك لو جئت خلالها لوجدتها معقدة اللفظ رديئة السبك خاملة الخيال
 غثلة الوزن !! ولا ادري كيف استحسن قول الشاعر :
 ولو ارسلت من حبي لك مهبوتا من الصين
 لو افيتك قبل الصبح جح او حين تصابن ؟
 ومن الرواة من كان يستحسن القبح الفليظ من الشعر ويستمتع ما كان على
 شاذة قول ذي الرمة :
 رميتني مي بالهوى رمي مضغ من الوحش لو ط لم تعقه الاوالس
 يمينين فجلاوين لم يجر فيهما ضمارت وحيد حلي الدر شامس
 ولم يحفل بشعر ابن ابي ربيعة وقصيدته التي ابتدأها بقوله :
 أمن آل نعم انت غاد فميك غداة غد أم رائج فمجر
 على ما فيها من ابداع وطول نفس ! وانها لتحمل قارئها على السير فيها بشوق
 ولذة . ولما سمع المخزومي قول عروة بن اذينة :
 ولهن باليت العتيق لبانة واليت يعرفن لو ينكلم !
 لو كان حياء قبلهن ظمائن حيا الحطيم وجوهن وزمزم !
 الى آخر الايات قال : انه اهجر واخطأ !! ويعلم الله اي الرجلين اهجر
 واخطأ ... وزعم العتبي ان قول جرير :
 ان العيون التي في طرفها حور قتلنا ثم لم يمين قتلانا !
 يصريح في اللب حتى لا حراك به وهن اضعف خلق الله اركانا !
 ليس له كبير معنى ... مع ان معناه - كما قال ابو هلال العسكري - غاية
 الحسن والجودة .

ولما شاهد الرواة روح التجديد تكتسح القديم وتطرده من ربوعها قابلوا ذلك بازدياد الحديث وانتكار فضله ، وبالتشهير بكل من يعرفون فيه بعض التمرد على القديم ، من ذلك ان ابن الاعرابي كان يأمر ان يكتب جميع ما يجري في مجلسه فانشده رجل يوما ارجوزة ابي تمام في وصف السحاب على انها لبعض العرب :
سارية لم تكتحل بمضى كدراء ذات هطلان محض
موقرة من خلعة وحض تهضي وتبقي نعم لا تمضي
قفزت بها السماء حق الارض

فقال ابن الاعرابي : اكتبوها ! فلما كتبوها قيل له انها لحبيب بن اوس فقال : خرق خرق لاجرم ان اثر الصنعة فيها بين !! فانت ترى ان ابا تمام أقرب فيهما لاغراب كله وتتبع آثار من سلفوا من الرجاز كلبي النجم ورؤية حتى اشكلت على ابن الاعرابي ولكن ذلك كله لم يشفع له بل خرقت تخريقا !! لا لان اثر الصنعة فيها بين بل لانه شعر حديث ! ومن اين يأكل ابن الاعرابي وامثاله اذا حل الحديث على القديم ؟! على ان كثيرا من الشعراء اشتد حرصهم على ارضاء الرواة وتقالوا في ان يكون لكل بيت من قصيدتهم معنى يستقل به عن سابقه ولاحقه مع تحميل بعضها ما لا يطابق من لفظ غريب وقواعد شاذة ليسير سير المثل وليتداوله الرواة في مجالسهم وعلماء النحو والغريب في حلقات الدرس !! وكان الفرزدق شيخ الشعراء الذين نحووا هذا المنحى واتبعوا هذه الطريقة شهد له بذلك ابن سلام في قوله : « كان الفرزدق اكثرهم بيتا مقلدا » والمقلد البيت المستغني بنفسه المشهور وذلك كقوله :

ولو خير السبيدي بين غوايته ورشد ابي السبيدي ما كان غاويا

ومن الذي كان يعجب النحويين هذا البيت :

وما مثله في الناس إلا مملكا ابو امه حي أبوه يقاربها !

وكذلك : الستم عاتجين بنا لعنا نرى العرصات او اثر الحيام ؟

فقالوا : إن فعلت فافرن عنا دعوا غير راقصة السجام

هذه الاشياء كلها مجتمعة جوزت للشعراء ما لا يجوز واباحت لهم للاتصال والسرقعة والنصب وحشرت الشعر في دائرة ضيقة ! وكم من شعر نسب الى

غير شاعر؟ وشعراء لم يأنفوا من اغتصاب ثمره مجهود غيرهم ! وها هو ذا
الفرزدق ينتصب قول جميل :

تري الناس ماسرنا يسرون خلفنا وإن نحن اوماننا الى الناس وقفوا !
وجرير يشتمل قول المملوط السعدي :

ان الذين ضلوا بلبك غادروا وشلا بيمينك لا يزال معينا !
فيضن من عبراتهم وقان لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟!
ويشتمل ايضا قول طفيل الفزوني :

ولما التقى الجمعان لقيت العسا ومات الهوى لما اصببت مقاتله !

وكان ابو نواس يني اكثر شعرا على معاني غيره : يدل على ذلك ما جاء
في (الاغانى) من ان اسحق الموصلي انشد شعرا لابى الهندي بـ ٢٠ صفة الحمرة
فلستحسبهم وقرظهم فذكر عنده ابو نواس فقال : ومن اين اخذ ابو نواس معانيه
إلا من هذه الطبقة وجعل ينشد بيتا بيتا من شعر ابى الهندي ثم يستخرج المعنى
والموضع الذي سرق الحسن فيه حتى اتى على الثلاث كلها واستخرجها من
شعره . وذكر صاحب (الاغانى) ايضا ان قول ابى نواس : « ودأوني بالني
كانت هي الداء » مأخوذ من قول الأعشى : « واخرى تدأوت منها بها » وان
قولهم : « إن الشباب مطية الجهل » مأخوذ من قول التابطة الجعدي : « فان مطية
الجهل الشباب » ولكنه ابو نواس شاعر الخلفاء والمشهود له بالفضل بين جمهرة
العلماء!! وهكذا ظلت هذه العيوب لاصقة بالشعر حتى يومنا هذا ولم يجرؤ
احد من شعراء نهضت الحاليتها على مناولتها والقضاء عليها غير نفر قليل وعندما حجب
الى (امير الشعراء) شوقي التجديد نهاء من ذلك « آفة اللغة الجاهلون » واغزو
بأمانى اسرت لبها وصادقت هوى في نفسها فرجع الى القديم من الشعر يتوخأ
عليه ويحتذيه والى الغريب من اللفظ يفسد به شعرا والى الحكم المعادة والاثال
البائدة « يحشرها » في كل قصيدة من قصائده ليكون حافظ اللغة وحجتها ولو
علم ترك شاعريته تنمو ويانه ينطق بما يعتقد ولم يسمع لهؤلاء الذين اخذوا
فريقته وحادوا به عن الجادة ولكن ما الحيلة والله لم يرد إلا ان يكون كذلك ؟!